

البحرين في الكتابات الفرنسية

مكي سعد الله

أستاذ مساعد، جامعة تبسه، الجزائر

(قدم للنشر في ٥/٦/١٤٣٥هـ وقبل في ١٣/٧/١٤٣٥هـ)

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، البحرين، صورة، الفرنسية، الثقافة.
ملخص البحث: يسعى هذا البحث إلى استجلاء وتوضيح صورة البحرين في الكتابات الفرنسية عامة، الموسوعات والمعاجم الأكاديمية خاصة، ضمن مقاربة موضوعاتية تتبعت أهم التيمات الأكثر حضوراً في الأبحاث الفرنسية.
ويدخل البحث في إطار دراسة علم الصورة Imagology وهو حقل من حقول الأدب المقارن، وأحد الأنشطة المفضلة للمدرسة الفرنسية.
والبحث يتقصى صورة البحرين كما وردت في المصادر العلمية الفرنسية الموثقة، والتي تكون في الغالب مادة مرجعية وتعليمية للطلبة والباحثين حيث يستدلون بها كشواهد علمية ونماذج تمثيلية في دراساتهم وبحوثهم.

يندرج موضوع التمثلات أو التمثيلات
"la représentation" أو علم الصورة (الصورولوجيا -
الصوراتية) ضمن صيرورة تاريخية وثقافية بفعل
الاحتكاك الذي حصل بين شعوب مختلفة وما ترتب
عنه من تواصل ثقافي وسياسي واجتماعي تجسد في
مفهوم "الثقافة" وكان هاجس الرغبة في معرفة
"الآخر" وتمثله أو تشكيل صورة عنه المحفز الأساسي
لهذه الصيرورة، بصرف النظر عن السياقات والمقاصد

في الفصل الأخير من كتابه "الأدب المقارن" وعلى الرغم من النقد والانتقاد المقدم لهذا الضرب من الدراسات (ويليك، ١٩٨٧: ٢٦٣) وحول أهدافه ونتائجه، إلا أنه فرع يتقاطع مع البحوث والدراسات التي يقوم بها علماء السلالات البشرية وعلماء الإنسانيات والاجتماع وغيرهم، حيث لا يمكن إنكار الدور الذي لعبه علم الصورة في تشكيل وتكوين الرأي العام، فقد غيّرت مثلاً مدام دي ستايل "madame de Staël" موقف الفرنسيين من الألمان في كتابها "من ألمانيا" "de l'Allemagne" والصورة إعادة تشكيل لـ "الأخر" المختلف ويخضع البناء والقراءة الجديدين إلى الوقوع أحياناً في مغالطات بسبب آليات التشكيل ومرجعياته المعرفية والعقائدية، مما يجعل "الأخر" سجين صور نمطية لا علاقة لها بالموضوعية والحقيقة أن «الصورة

التي تحكمت في عملية التشكيل والتأويل والتداول. "فالآخر" ضروري "للأنا" ولذلك دعا الفيلسوف الفرنسي إيمانويل ليفيناس (1906- Emmanuel Levinas) إلى ضرورة إعادة النظرة إلى "الأخر" ومراجعة فهمنا لذواتنا من خلال مرآة الغيرية وإعادة طرح مفهوم الهوية، "فالآخر" قلب ولب الهوية وأنه المنادي لاهتمامي وعنايتي وتركيبتي الشعوري واللاشعوري (Levinas, 1991) على الرغم من أن "الأخر" جحيم أيضاً كما يقول سارتر^(١) وعلم الصورة فرع وحقل من حقول الأدب المقارن عامة والمدرسة الفرنسية خاصة، التي جعلته محوراً لإنتاجها المعرفي في التعرف على الشعوب وآدابها وقد بدأ تاريخياً مع الأستاذ الباحث جان ماري كاريه^(٢) ثم طوره ماريوس فرانسوا غويار^(٣)

(١) جان بول سارتر (1905-1980) (Jean Paul Sartre) كاتب وفيلسوف فرنسي صاحب المدرسة الوجودية في الفلسفة من أهم أعماله المميزة، "عارنا في الجزائر" وبناء على سياسة فرنسا الاستعمارية رفض جائزة نوبل.

(٢) جان ماري كاريه (1887-1958) "jean marie carré" أستاذ وباحث فرنسي مختص في الأدب المقارن، درس بجامعة القاهرة من أهم أعماله بالفرنسية: صور من أمريكا ١٩٢٧، الرحالة والكتاب الفرنسيون في مصر ١٩٣٢...

(٣) ماريوس فرانسوا غويار (1921-) "Marius François Guyard" (1954) أستاذ وباحث فرنسي في الأدب المقارن، من أهم =

= أعماله الأدب المقارن ١٩٥١م، ترجمه هنري زغيب وصدر عن منشورات عويدات باريس.

(٤) مدام دي ستايل "madame de Staël"، واسمها الكامل Anne- Louise Germaine Necker (1766-1817) كاتبة ورواية فرنسية من أصول سويسرية، يعد كتابه "من ألمانيا" de l'Allemagne فتحاً جديداً في عالم صور الشعوب الذي لم ينشر في فرنسا إلا في سنة ١٨١٤م بعدما منعه نابليون.

هي تمثيل فردي أو جماعي يدخل فيها عناصر ثقافية وتأثيرية وموضوعية وذاتية، فلا يمكن لأي أجنبي أن يرى بلدا كما يريد أهله أن يراه، بمعنى إن العناصر التأثيرية تفوق العناصر الموضوعية» (بيشوا، ٢٠٠٠، ١٤٤).

فالحفر والبحث في الكتابات القديمة المتعلقة بالصورة، يلحظ وبشكل جلي المقارنة الغربية في رسم الصور وجعلها نمطية بناء على مرجعيات بعينها تخدم التمرکز الغربي وغاياته الاستعمارية، فقد لعبت المرويات الكبرى *les grands narrative* " وأدب الرحلات والبعثات التبشيرية، الاستشراق والإعلام حاليا أدوارا في رسم صور الشعوب والأمم وجعلوا منها نموذجا للبربرية والتوحش تمهيدا لاحتلالها تحت غطاء التمدين والبعث الحضاري.

فصورة العربي مثلا لا تخرج عن صفات ساذجة، سطحية فهو « بدوي.. فقير تعليمه منخفض، يعيش مع حريم حيث لا توجد للنساء سوى حقوق قليلة، إن كانت لهن حقوق على الإطلاق، والعربي غير ديمقراطي، يعيش في حالة فساد سياسي، تحت سيطرة الطغیان جماعة أو خاضعا لواجب الإخلاص لقبيلته» (ياسين، ١٩٨١: ٨٧).

"فالأخر" -مصطلح غني- بالدلالات والمحمولات الثقافية، لذلك غالبا ما يكون ضحية الإسقاطات المرجعية الإيديولوجية والعقائدية؛ لأنّ قراءة الصورة عمل تصنيفي وترتيبي وتنظيمي يهتم باستجلاء مكونات الصور والظروف والملامسات التي كونتها (رحلة، استكشاف، خيال، تخيل) في حين أن تأويل الصورة فعل يتعلق بالتفسير وإدراك الأبعاد وغالبا ما يحدث في هذا الفعل تضخيم "للأنا" تقزيم "للآخر" وتهميشه وتكريس لدونيته في منظر تعالية "الأنا" المتمدنة، المتحضرة، المؤهلة للقيادة والريادة؛ وبذلك تتم عملية التمرکز العرقي، وقد وضح هذا تودوروف "Todorov" في كتابه "مسألة الآخر" (تودوروف، ١٩٩٢٥٢:)، وما تبع من عمليات إبادة جماعية لشعوب وثقافات عديدة تحت شعار الفتوحات الجغرافية، كما صنّف علماء الاجتماع الأجناس البشرية حسب ألوانه الأربعة؛ الأبيض، الأصفر، الأحمر ثم الأسود مع إعطاء الأفضلية للأبيض في القيادة والريادة وحسن التفكير والتدبير (dominique, 1998٢٤٣:)

فالصورة ليست واحدة وغير ثابتة، فهي تخضع للمنظور إليه والإيديولوجية الكاتب والمرجعيات

الصورة الأدبية والفنية ثم الصور الذهنية المختلفة، وصور الجغرافيين والمستكشفين، وصولاً إلى عصر التقنية مع الصورة الفوتوغرافية. وإن كان لكل نوع سلبياته وإيجابياته، فإن أقرب الصور إلى الموضوعية والعلمية هي تلك الصور التي شكلتها الظروف العلمية لتكون في المراجع والمصادر المعرفية المختلفة من معاجم وموسوعات وغيرها ولتكون منهلًا للباحثين والأكاديميين في بحوثهم ودراساتهم وأثناء تداولهم لها فهي معرضة للتغيير والنقد والتجديد.

وهذا الدافع كان سبباً مباشراً في اختيارنا للكتابات العلمية والمعرفية أكثر من الدراسات السردية التي يلعب الخيال والمقاربات السياسية والاتجاهات الإيديولوجية دوراً أساساً في تسييرها وتحديد نتائجها المسبقة. فالعالم موضوعي في ذاته ولكن العين التي تصوره متحيزة فهي تراه عبر وسائط الثقافة والخيال والمعتقد، فهي تنتقي الصور قصراً وقصداً؛ وهذا ما جعلها تتلاعب بالعقول بتعبير بيير بورديو (بورديو، ٢٠٠٤: ١٠٤).

لماذا البحرين؟

إنّ مشروعية التساؤل تفرض نفسها، فلماذا البحرين؟ نقول: إنّ المتصفح لفهارس محركات البحث على الشبكة العنكبوتية يصطدم بالكم الهائل من

المتحكمة في نظره "للآخر"^(٥)، فالنظرة متحيزة، فهي تنتقي وتختار ما تريد أن تشاهده وتشكله، فهي تختلف عن الواقع وتتحكم فيها عوامل ذاتية وموضوعية «إن انعكاس الصورة لا يتم أبداً كالصورة الفوتوغرافية» (Pierre, 1980:123).

وكما تنوع "الناظر" قياس المنظور إلى "المنظور إليه" فقد تعددت أشكال الصورة، وكان أكثرها قدما

(٥) إن السياق الذي تركز عليه دراسة "الصورة" وتصنيفاتها المختلفة في الثقافة الغربية - غالباً - خطاب نخبوي، ازدرائي، استعلائي منبثق من المركزية الغربية "égocentrisme" التي تجعل أوروبا مركزاً وما غيره هامشاً منمطاً بصور وحشية تخيلية مستخلصة من تكييف نظرية الكيوف الأرسطية وبحوث الكونت غوبينو Gobineau (1816-1882) في دراسته الموسومة بـ (بحث في عدم تساوي الأعراق البشرية) لتتوافق مع أطروحاتهم ومعتقداتهم.

وقد أعدت بحوث علمية وأكاديمية تفند هذه الأطروحات منها: "الاستشراق" لادوارد سعيد، "أساطير أوروبا حول الشرق" لرنّا قباني، "فتح أمريكا، مسألة الآخر" لتريفيتان تودوروف ودراسته الرائدة الموسومة بـ "الخوف من البرابرة"، "حق التضحية بالآخر" لمنير العكش، دون أن ننسى نظريات الدكتور عبد الله الغدامي في النقد الثقافي ودراسة الأنساق الثقافية....

الجمال الطبيعي (سحر، منظر، أسطوري، جنة الدنيا... وهكذا).

يضاف إلى هذا التساؤل، تساؤل أكثر مشروعية من الأول ويتمثل في هوية الكتاب؟ نقول: إن كُتَّاب المقالات والموضوعات المتعلقة بالبحرين، قد سجلوا معارفهم ودونوها في أكبر الموسوعات العلمية والمعاجم الأكاديمية العميقة؛ لأنهم من الباحثين المشهود لهم بالموضوعية والموسوعية العلمية بالإضافة إلى تدريسهم بأشهر الجامعات وتوليهم كراسي البحث وفوزهم بأعلى الأوسمة العلمية والتشريفية التي تمنحها السلطات الفرنسية لفرسان القلم والكتابة.

البحرين: الموقع الجغرافي والتكاليف الاستعماري

أصبحت منطقة الخليج العربي من أهم المناطق والبور الإستراتيجية في العالم لارتباطها باكتشاف مصادر الطاقة وخاصة النفط إلا أن البحرين أحدثت الاستثناء، فهي بالإضافة إلى ثرواتها الطبيعية، تزخر بموقع إستراتيجي خاص ومميز جعلها عبر الزمن مصدرًا للإلهام الشعري والرومانسي أو موضوعًا للصراع والتنافس «فأهمية الموقع الجغرافي جعل من البحرين منطقة صراع؛ لأنّ المسيطر عليها سيحتكر السلع القادمة من الهند وهذا ما جعلها منطقة صراع

الكنوز والمواد المعرفية والعلمية المختلفة المتعلقة بالبحرين، ولكن على الرغم من أكاديمية بعض الدراسات والتصورات والمشاهد واللوحات إلا أنها تبقى في قلبها الافتراضي "virtuel" ولكن في المقابل إذا تصفحنا المكتبات، فإننا نكاد نصاب بالذهول بالحجم الكبير من الإنتاج المعرفي والكتابات المختلفة المخصصة لدولة البحرين، فالمكتبة الوطنية الفرنسية^(٦) مثلًا تمنحك ١٣٦٦ وثيقة مكتوبة، موزعة على مختلف الحقول المعرفية، دون إحصاء حضور مصطلح "البحرين" في الآلاف من الكتابات التي يتقاطع فيها مع ذكر حدود دول الجوار أو تسويق بضاعة بعينها كتجارة وصيد اللؤلؤ وفي تعلقه بالمصطلحات البحرية والجغرافية (جزر وأرخبيل) أو في تقاطعه مع قيم

(٦) المؤسس الفعلي للمكتبة الوطنية الفرنسية هو الملك لويس الحادي عشر، وهي واحدة من أعرق المكتبات وأهمها في العالم. وتحتفظ المكتبة بنسخة من أي مطبوعة طبعت بفرنسا. وتشمل مجموعاتها نحو ٢٠ مليون مجلد مطبوع، و٥٠٠ ألف مجلة و١٦٥ ألف مخطوط، و٦٠٠ ألف خريطة، و١٥ مليونًا من النقوش والصور الضوئية ونحو ٤٠٠ ألف نوع من العملة والحجارة الكريمة المنقوشة.

M.Jouannin في محاضرة لها بتاريخ ١٩ ديسمبر ١٩٠٤، أن الإنجليز حاولوا السيطرة على البحرين في مطلع القرن السادس عشر تحت شرعية طرد البرتغاليين، أما في القرن التاسع عشر فقامت بذلك تحت غطاء محاربة القرصنة، وأنّ «النتيجة الطبيعية والمنهجية لهذه الحملات هي السيطرة على طرف الهند والطريق المؤدّي للمتوسط أو جبل طارق ومالطا وقبرص ومصر...» (Jouannin,1905:35).

المتصفح للبحوث الوثائقية لأرشيف المجلات الفرنسية يعثر على نتائج تؤكد أن الأهمية الجيوسياسية للمملكة هي السبب المباشر للتكالب الاستعماري عليها، فتارة تكون مقصودة لذاتها، وفي صورة أخرى تكون وسيلة للعبور إلى بلاد فارس، فقد أشارت مجلة "صدى الجزائر" في عددها ١١٣٣٨ إلى أن صراعاً روسياً إنجليزياً حول إيران يجعل البحرين في موضع خطير بحكم أنها «منطقة انطلاق قوية للبحرية الإنجليزية إلى الخليج الفارسي» (l'echo,1941:01). فموقع المملكة مهم في حالي السلم والحرب، تعدّ من أهم المناطق والأسواق لتبادل السلع والخدمات والثقافات، وقد أكد الباحث م.رونو "M. Renaud" في تقاريره الخاصة والمهمة والموسومة ب"يوميات آسيوية" "Journal Asiatique" عن البعد الحضاري

بين الفرس والبرتغال والأسبان ودول إقليمية أخرى» (Raphael,1890:21).

وهذه المكانة المميزة، جعلتها من أهم دول المنطقة العربية جغرافياً حتى أن أحد الأساتذة الفرنسيين في درس من دروس جغرافية آسيا، نعتها بعاصمة الدول العربية «هي من أهم المناطق العربية، حيث تتوسط شبه الجزيرة العربية، وتعدّ عاصمة لجميع الأقاليم العربية» (Ansart,1865:30) واختيارها كعاصمة اعتراف بالقيمة والأهمية السياسية والثقافية، فالبعد الثقافي مرتبط بالهوية والموروث، فهي عاصمة بما تزخر به من معالم وتنوع ثقافي شاهد على العمق الحضاري، فالخيز الجغرافي أو الفضاء المتربع على مساحة معينة لا يشكلان عاصمة إنما العاصمة برسالتها نحو "الأخر" ثقافة وتسامحاً وتنوعاً. فالأهمية الجغرافية والمكونات الاقتصادية القوية، جعلت القوى الاستعمارية في سباق مع الزمن لاحتلال البحرين «فنظراً للأبعاد الجيوسياسية والجيواقتصادية للمملكة، فإنها كانت في وجه التكالب الاستعماري؛ الإنجليزي / البرتغالي/ الروسي/ الفارسي، فالموقع الجغرافي الإستراتيجي وتوسط القارة الآسيوية والموقع البحري، كلها عوامل ساهمت في تأجيج الأطماع الاستعمارية (Rouire,1908:41) وقد أشارت الأستاذة م. جوانين

تحيط بالجزر، وهي ذات شهرة عالمية في صيد اللؤلؤ... أما المنامة فهي متحركة جداً تشبه الدكان الكبير "un bazar..." وللبحرين حضارة تعود للفينيقيين... آثارها ذات قيمة إنسانية كبيرة؛ لأنها رمز للحضارات القديمة... هذه الامتيازات والثروات الطبيعية هي التي دفعت الاستعمار البرتغالي إلى احتلالها^(٨) (société royale, 1890:121). كما كان الفضاء الطبيعي البحري ملهماً بالكتاب والروائيين الذين جعلوا أبطالهم يجوبون جزره باحثين عن الفردوس المفقود وعن يوتوبيا لتحقيق الأمان والطموحات والأحلام كما هو شأن "ألير دي لوسان" "Albert de lussan" بطل قصة "بائعة الورود" "la marchande de fleurs" لغزافيه دي منتيلين "L'ouest"^(٩) (Xavier de Montépin, 1900:05)، والشهادات من هذا النوع كثيرة ومتراصة في الكتب والدراسات، وهي شاهدة على شموخ وأصالة البحرين من حيث العمق الحضاري والكنوز الطبيعية.

لمملكة البحرين من حيث إنها أصل ومهد الحضارة الفينيقية" (Journal officiel, 1881:1861). وأن الحقائق التي توصل إليها العالم أوبرت "M.Oppert" من معهد البحوث الاثنوغرافية تعد فتحاً حول الهوية الحضارية للبحرين، حيث أشار الباحث إلى أصل البحرين ومكانتها، إنَّ الملك "Opiri" كان يصف مغامراته بالبحرين بأنه «كان يعيش محاطاً بالبحار كالأسماك» في كناية عن كثرة الجزر وغناها باللالئ والمرجان^(١٠) (Journal officiel, 1882:5543).

أما في مجال الحرب فهي منطقة غنية بالإمكانات البشرية والمادية، والمسيطر عليها يضمن موقعاً إستراتيجياً في مجال الجغرافيا السياسية وإعادة تشكيل المنظومة السياسية الإقليمية. ويُجمع أغلب الباحثين على أن الموقع الجغرافي والبعث الحضاري للمملكة كان سبباً مباشراً في احتلالها واستعمارها، يقول M.J.TH.Bent في رحلة استكشافية للبحرين سنة ١٨٩٠ إن: «البحرين... مكان جميل بل فائق الجمال؛ لأنه جمع الرمل والنخيل والماء» وأن الأرصفة المرجانية

(٨) أما تيودور بنت " (1852-1897) Théodor Bent) رحالة واثنوغرافي زار البحرين سنة ١٨٨٩ للبحث في جذورها الحضارية القديمة.

(٩) اغزافيه دي منتيلين (١٨٢٣-١٩٠٢) روائي فرنسي.

(٧) أما جيل اوبرت " (1825-1905) Jules Oppert) فهو باحث وأستاذ في الكوليدج دي فرانس، متخصص في علم الأثرية الأثرية.

صيد اللؤلؤ: منتج غير قابل للمنافسة

ورد مصطلح اللؤلؤ في القرآن الكريم أربع مرات في دلالة واضحة على مكانته الجمالية وقيمه الفنية، والمتبع لمفهوم اللؤلؤ يجده مقترناً باسم البحرين، فالله سبحانه وتعالى حبا هذه الدولة نعمة لم تمنح لغيرها، فالكتابات جميعها تقرر بين "اللؤلؤ والبحرين"، «إن تاريخ البحرين يتلخص في صيده للؤلؤ.»^(١٠) (Jane,1888:43) وهذا اللؤلؤ يمكن العثور عليه في العديد من البحار إلا أنه لا يرقى إلى القيمة الجمالية للمنتج البحريني الذي يعدّ الأكثر شهرة في العالم «يمكن العثور على اللؤلؤ في مختلف خلجان العالم إلا أن أجودها في البحرين... وهو في أشكال مختلفة، ومن أشكاله تدرك قيمته، فالأعلى قيمة ما كان في شكل كمشري، وهناك لآلئ لا تقدر بقيمة إلا من قبل المختصين المحترفين.» (Berthelot,1892:336).

اللؤلؤ البحريني مختلف عن غيره الموجود في العالم، نظراً لمناخ نموه ووجوده وجودته «تقدر قيمة اللؤلؤ

من ماءها وبريقها ولونها وشكلها... أما وزنها فيتراوح بين ٥ و ٦ غرامات ولا أعرف لؤلؤة تجاوزت ٨ غرامات... وتستخدم في أغراض متنوعة؛ للزينة كالأقراط والعقود والأساور في أوروبا، في المشرق لتزيين الفساتين والقدمين... كما تستعمل اللآلئ في الأماكن المقدسة وتزيين الصلبان والأطباق والكؤوس وألبسة القساوسة والرهبان... ويوجد في متحف اللوفر Louvre^(١١) في باريس المكتبة الوطنية نماذج مزينة ومزدانة بهذه الأحجار الكريمة والشمينة.» (المرجع السابق: ٣٣٧).

المشهد جلي في القيمة الفنية والجمالية للؤلؤ البحريني؛ لأن المنابع المائية التي ينشأ فيها غير موجودة في كل الخليجان، فقد أشارت العديد من الموسوعات إلى ظاهرة اختلاط الماء، وتقاطع منابع الماء الدافئ والمد المالح، وفي هذا توجد أجمل أنواع اللؤلؤ. (malte,1851:441)

ونظراً للقيمة العالية للؤلؤ البحريني، ارتفعت أسعاره في الأسواق العالمية وفي أكبر المعارض الدولية، المقامة لهذه البضاعة، مما دفع بالمنتجين إلى تسويق نماذج ثروة ومقلدة مصنعة من حبيبات الزجاج وغيرها. (٤٤٢: د.د.ت. encyclopédie).

(١٠) وجان دي لا فوي (١٨٥١-١٩١٦) باحثة اثنوغرافية، روائية، صحفية ومصورة فرنسية، حائزة على وسام "فارس جوقة الشرف" "chevalier de la légion d'honneur" ووسام التفوق من الأكاديمية الفرنسية "lauréat de l'Académie française".

ضاعت من مالك يخت يدعى "la Bella" و سقطوا في الماء بعد رحلة من باريس إلى لوهافر "le havre" ولم يُعثر عليهم إلى الآن رغم محاولات البحث، مما دفع الكاتب إلى التساؤل: هل يستوجب استرجاع الأحجار الكريمة إحضار غطاسين مهرة ومحترفين من البحرين؟ (le Gaulois, 1923:01)، وتكثر وتعدد الشهادات حول احترافية الصيادين وإتقانهم لعملهم. «يربط الصيادون أحزمتهم بحبل، مع كيس معلق على جانبهم ثم يتركون سفنهم ٢٠ إلى ٣٠ مترا. ثم يصطادون اللؤلؤ في ظرف دقيقة وكثيراً ما يخرجون والدم ينزف من أنوفهم وآذانهم. فهو عمل قد يؤدي بحياتهم» (bulletin, 1928:86).

والحاجة أم الاختراع فكثيراً ما يجتهد الصياد في إبداع واختراع أدوات لحماية نفسه من الأسماك الكبيرة أو ربط نفسه بحبل للاتصال بالباقيين في الزورق، أو لحماية نفسه من آثار الماء كوضع القطن المنقوع في الزيت في الأنف والأذن وهكذا (Jane, 1888:45) كل هذه الوسائل لاصطياد لؤلؤ غير قابل للمنافسة في الأسواق العالمية (Darboux, 1906:151).

ثقافة التسامح والتعايش الديني

في شهادات متنوعة، قدّمها باحثون ودارسون أشاروا فيها إلى أن الدين فطري عند البحرين، حيث لم

وعجز العالم عن المنافسة الشرعية، دفع بالدول إلى اتخاذ إجراءات للحد من سيطرة اللؤلؤ البحريني على الأسواق العالمية، حيث أصدرت السلطات الفرنسية مرسوماً في الجريدة الرسمية الفرنسية بتاريخ ٢٠ جوان ١٩٣٧ ينص على تطبيق ضرائب مباشرة على المتوجات البحرينية ومشتقاتها القادمة من البحرين، وذلك لعجز المنتوجات الفرنسية القادمة من المستعمرات عن المنافسة.^(١١) (bulletin, 1938:300).

وقد ساهمت عوامل موضوعية كثيرة في شهرة اللؤلؤ البحريني، منها: صحة الصيادين، ونقاوة الماء، فقد أشارت نشرة بحثية متعلقة بمرض الكوليرا، أن هذا الوباء حالاته قليلة في البحرين على الرغم من انتشاره في الأماكن المائية المختلطة، وأن عدد الإصابات التي أحصيت ووجدت نادرة جداً. (notice, 1832:01).

كما أشادت الدراسات والبحوث بمهارة الصيادين، هذه المهارة وصلت إلى درجة الأسطورة، حيث تشير جريدة "les Gaulois" الفرنسية في أحد إعدادها إلى أن أربعة أساور لا تقدر بثمن

(١١) أما القانون فقد صدر بالجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية عدد ١٤٢ السنة التاسعة والستون بتاريخ ٢٠ جوان ١٩٣٧.

دوشان "Louis Duchesne" ، إلى أنه «على الرغم من تقلص عدد الكنائس إلا أن المسيحيين لم يشعروا بأية عراقيل في ممارسة طقوسهم ومعتقداتهم الدينية»^(١٢) (Louis, 1905:352) وفي هذا تجسيد لقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ البقرة - ٢٥٦ .

فقد آمنت المنظومة الدينية البحرينية بالتنوع والحرية في المعتقد؛ وهذا ما جعل السيد غاستون بوردا Gaston Bordat بعد رحلة دراسية خاصة بالدراسات الجغرافية والاقتصادية، قاده إلى العديد من الدول منها العربية السعودية وتركيا، وكانت من بين محطاتها الأساسية البحرين التي استقر بها فترة لدراسته وتعرفه على الإسلام (Journal officiel, 1902:884)، هذا الإسلام المعتدل هو الذي نصَّ عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ سورة آل عمران - ٦٤ .

وبعيداً عن التقطيع السياسي والاقتصادي والتأويلات المغرضة، فقد كتبت جان بيار علالي "Jean Pierre Allali" مقالا بعنوان "اليهود في البحرين

يشتوا في دراساتهم وكتبهم حوادث دامية نتيجة صراعات مذهبية أو طائفية، بل أكدوا على حقيقتين؛ الأولى أن البعد الحضاري للمملكة جعلها فضاء منوعاً لأعراق وأجناس كثيرة، تفاعلت كلها وانصهرت في خدمة ثقافة الاختلاف والتعايش السلمي.

والثانية متعلقة بتداعيات ثقافة التنوع الديني حيث انتعش المشهد الاجتماعي والاقتصادي من خلال مئات العمال الذين قدموا لممارسة مهنة الصيد، حيث لم تشتك هذه العمالة من عنصرية أو تمييز، بل مارست مهنتها بكل حرية في تناغم إيجابي بين الوافد والمقيم، فقد أشارت بحوث إلى أن أرباب العمل البحرينيين «يوفرون لعمالهم الأكل؛ من سمك وتمور وأغذية متنوعة.» (Jane, 1888:44).

إكراماً وتشجيعاً لهم، وكثيراً ما يتعاطفون معهم حتى في حالات تلبسهم بجريمة سرقة (المرجع السابق: ٤٤). فثقافة التسامح شجعت جميع الأطياف على التعايش، وقد خلا القاموس الفكري والديني للبحرين من مصطلحات التكفير والعنصرية، وشكل الحضور اليهودي والمسيحي أقوى المؤشرات في ثقافة التسامح، ويذكر أنهم حضروا إلى المملكة - حسب التوثيق الرسمي - نهاية القرن التاسع عشر من العراق اشتهروا بممارسة التجارة، يشير الأسقف "لوي

(١٢) لويس ديشان "Louis Duchesne" (1843-1922) مؤرخ

وفيلسوف وكاهن فرنسي عضو الأكاديمية الفرنسية.

الريحاني أمين، ملوك العرب، الطبعة الثانية، بيروت، الجزء الثاني، المطبعة العلمية، يوسف صادر، ١٩٢٩.
 علالي جان بيير، "اليهود في البحرين استثناء في الخليج العربي" (Crif;consiel représentatif des institution)

(juives de France) بتاريخ ١١/١٢/٢٠١٣.
 ياسين السيد، الشخصية العربية، بين صورة الذات ومفهوم الآخر، القاهرة، مكتبة مدبولي ١٩٨١.
 ينظر: بورديو بيير، التلفزة وآليات التلاعب بالعقول، ترجمة درويش الحلوجي، الطبعة الأولى، دار كنعان، ٢٠٠٤.

ينظر: تودوروف تزيفيتان، فتح أمريكا؛ مسألة الآخر، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة، دار الثقافة الجديدة، ١٩٩٢، حيث أشار إلى أن «كلمة "اكتشاف" التي استخدمتها أوروبا التوسعية حاملة في ثناياها إيديولوجية تضخم الذات الأوروبية وتغيب الآخر اللاأوروبي».

ينظر: كتاب، رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ترجمة جابر عصفور، الكويت، عالم المعرفة، فبراير ١٩٨٧، ومن آرائه أنه من الواضح أن الإغريق في العصور القديمة لم يكونوا مؤهلين للدراسات المقارنة؛ لأنهم عاشوا في عالم مغلق اعتبر كل الشعوب التي تقع خارجه بربرية». بالإضافة إلى أعمال الكاتب الفرنسي رينيه

استثناء في الخليج العربي" وضحت فيه بأن اليهود أقلية في البحرين لكنهم يشكلون الاستثناء فهم يمارسون عقائدهم دون مضايقة أو إكراه^(١٣) (جان بيير، ٢٠١٣: الواجهة).

وتتوالى الشهادات على انتشار ثقافة التسامح والتعايش بين مختلف الطوائف دون أكره أو إقصاء. ونختم هذا البحث المتواضع بحقيقة أن تاريخ البحرين الثقافي والحضاري والبشري في الكتابات العالمية مازال حقلاً جديداً، يتطلب المزيد من البحث والتقصي. وفي هذا تقصير يجعلنا جميعاً نشترك مع أمين الريحاني حين قال: « ما أخطأت الظن مرة ببلاد عربية مثل خطئي بالبحرين، (أمين، ١٧٩: ١٩٢٩).

المراجع

المراجع العربية:

بيشوا كلود - اندريه م. روسو، الأدب المقارن، ترجمة أحمد عبد العزيز. ط الثالثة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، نوفمبر ٢٠٠٠.

(١٣) وفي مقال آخر نشر بمجلة "tribu 12" العدد ١٧، شتاء ٢٠٠٨، ص ٢١، أوضحت الكاتبة سعادة الجالية اليهودية في البحرين وعدم تعرضها للمضايقة أو الإقصاء والعنصرية.

- Journal officiel de la république Française, 14^e année, N° 279, 12 Octobre 1882.
- Journal officiel, N° 36, 34^e année; jeudi 6 février 1902.
- LE GAULOIS ,58^{eme} année ,3e série , Ne 16760, samedi 25 aout 1923 .
- L'Echo d'Alger, vendredi 22 aout 1941, 30^e année, N° 11338. 19- Journal officiel de la république Française, 13^e année, N° 65, 6 avril 1881, p1861.
- L'Ouest-Eclair, deuxième année ,N° 289, lundi 21 mai 1900.
- M. Jouannin, sur la route des Indes, Français Anglais et russe au golfe persique, bulletin de la société géographique, commerciale de bardeaux, 16 janvier 1905.
- Macherey Pierre, pour une théorie de la production littéraire Paris ,Maspero , 1980.
- Du Mans le P: Raphael, estat de la perse en 1660 ,Paris ,Ernest Leroux ,Editeur , 1890 .
- Malte Brun V.A., Géographie complète et universelle, ou description de toutes les parties du monde , deuxième tome , Paris, Eugene et Victor Pénard frères, Editeurs, 1851.
- M^{me} ED.Ansart et A. Rendu , cours complet d'histoire et de géographie ,Paris, librairie classique et ecclésiastique , 1865..
- NIOX lieutenant – colonel, Géographie militaire, le levant et le bassin de la méditerranée, 2eme, édition, Paris, librairie militaire , 1887.
- Notice sur le cholera- morbus ,sur son mode de propagation , ses causes ,ses symptômes , son traitement, 15 avril 1832,J.S CHAUDE ,libraire éditeur , Paris.
- Société royale belge de géographie bulletin publié par les soins de M.J.du Fief, quatorzième année, bruxelles 1890.

إيتيامبل " (1909-2002) René Etiemble" في حديثه عن
أزمة الأدب المقارن من خلال كتابه " comparaison n'est
"pas raison .

ينظر: Schnapper Dominique , la relation à 'autre au
cœur de la pensée sociologique Gallimard, 1998.
Paris.

المراجع الأجنبية:

- Bulletin de la société de Géographie de Toulouse, Avril 1928 ,M.G.DE MONSABERT ,Toulouse, France.. G.Darboux, J.Cotte, P.Stephan, F.Van Gaver, l'industrie des pêches aux colonies , Tome 1, Marseille Barlatier , , 1906.
- Bulletin de la statistique générale de la France et du service d'observation des prix, Tome XXVI Fascicule II, Janvier – Mars, 1938 .
- Dieulafoy M^{me} Jane, A Suse journal des fouilles 1884-1886, paris, librairie Hachette, 1888.
- Marcelin Berthelot (de l'académie Française) science et morale, Paris , calmann – levy , Editeurs,1896 .
- D^r Rouire, la rivalité Anglo -russe au xix siècle ,en Asie,Paris, libraire Armand colin 1908.
- Duchesne, Louis: autonomies ecclésiastiques, églises séparées, deuxième édition, paris Albert fontemoing,;1905.
- Emmanuel Levinas, Entre nous, Essais sur le penser-à-l'autre, Paris, Grasset, 1991 .
- Encyclopédie des du monde, Tome dix-neuvième, deuxième Partie , presses mécanique de E. Duverger .